



الثورة السورية: خواطر ومشاعر (47): لا تهنووا ولا تحزنوا

إن كنتَ أرقـتَ ليلةً بدأـ النظام المـجرم بـقصف بـابـا عـمـرو حـتـى طـلـع ضـوء الصـبـاح وـلـا يـجـد النـوـم إـلـى عـيـنـيك سـبـيلـاً، ثـم قـمـتَ بـعـد نـوم قـلـق وـفـتـحت جـهـاـزـك مـتـلهـفاً لـسـمـاع ما يـطـمـئـنـا مـن أـخـبـارـ، وـكـذـلـك مـضـتـ الأـيـامـ والـلـيـاليـ التـالـيـةـ، سـتـةـ وـعـشـرـونـ يـوـمـاً وـسـتـ وـعـشـرـونـ لـيـلـةـ حـافـلـةـ بـالـقـلـقـ وـالـأـرـقـ وـبـالـتـرـقـ وـالـدـعـاءـ... إـذـا كـانـ هـذـا شـائـنـكـ فـأـنـتـ السـاعـةـ مـحـزـونـ مـكـرـوبـ، وـلـعـلـكـ تـقـرأـ أـخـبـارـ اـنـسـاحـ بـأـبطـالـ الـجـيـشـ الـحـرـ مـنـ بـابـا عـمـروـ بـقـلـبـ مـنـقـبـضـ وـعـيـنـيـنـ زـائـغـيـنـ بـلـلـهـاـ الدـمـعـ، وـلـعـلـ هـاتـفـ الـيـأسـ يـهـتـفـ فـيـ قـلـبـ يـقـولـ: لـأـمـلـ، لـقـدـ هـُزـمـنـاـ!

إن كنتَ تـؤـمـنـ بـالـلـهـ وـبـوـعـدـ اللـهـ فـاقـرـأـ هـذـهـ الـمـقـاـلـةـ، وـاقـرـأـهـاـ إـنـ كـنـتـ تـثـقـ بـحـرـكـةـ التـارـيـخـ وـبـسـنـةـ اللـهـ فـيـ التـارـيـخـ، وـاقـرـأـهـاـ إـنـ كـنـتـ تـثـقـ بـقـوـةـ الـإـنـسـانـ وـعـزـيمـةـ الـإـنـسـانـ.

يا أيها المحزون المكروب:

ثـقـ بـالـقـوـةـ الـتـيـ منـحـاـ اللـهـ لـلـإـنـسـانـ يـوـمـ خـلـقـ اللـهـ الـإـنـسـانـ، وـلـوـلـاـ لـمـ بـقـيـ إـلـاـ وـحـطـمـتـهـ الـهـمـوـمـ وـالـأـحـزـانـ. إـنـكـ السـاعـةـ فـيـ غـمـ وـهـمـ عـظـيمـيـنـ، وـلـكـ الـأـيـامـ تـتـنـقـلـ وـتـدـورـ، وـإـنـكـ لـتـنـذـرـ الـآنـ -ـلـوـ شـيـئـ- يـوـمـاًـ أـمـضـيـتـهـ فـيـ مـرـضـ شـدـيدـ حـتـىـ ظـنـنـتـ أـنـكـ لـاـ تـبـرـأـ، فـتـضـحـكـ فـيـ سـرـكـ مـنـ نـفـسـكـ وـأـنـتـ تـتـذـكـرـ مـبـلـغـ أـلـمـ وـتـشـاؤـمـكـ فـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ، أـمـاـ الـأـلـمـ نـفـسـهـ فـلـاـ تـكـادـ تـتـخـيلـهـ بـعـدـمـاـ ضـاءـعـ فـيـ ثـنـيـاـ الـزـمـانـ. وـإـنـكـ لـتـنـذـرـ الـآنـ -ـلـوـ شـيـئـ- ضـائـقـةـ وـقـعـتـ بـهـاـ حـتـىـ ظـنـنـتـ أـنـهـاـ لـاـ مـخـرـجـ مـنـهـاـ وـلـاـ فـرـجـ. فـتـضـحـكـ مـنـ نـفـسـكـ وـأـنـتـ تـتـذـكـرـ مـبـلـغـ ضـيـقـكـ وـيـأـسـكـ فـيـ تـلـكـ الـحـالـةـ، وـلـاـ تـكـادـ تـتـخـيلـ الضـيـقـ نـفـسـهـ بـعـدـمـاـ مـحـتـ أـثـرـ الـأـيـامـ. وـلـسـوـفـ تـتـذـكـرـ هـذـاـ الـيـوـمـ -ـبـعـدـ أـجـلـ-. وـتـنـتـرـ حـوـالـيـكـ فـتـقـوـلـ: أـيـنـ مـاـ أـصـابـنـيـ مـنـ هـمـ وـغـمـ؟ وـأـيـنـ نـمـرـودـ سـوـرـيـاـ الـذـيـ طـفـيـ وـبـغـيـ وـأـظـهـرـ فـيـ الـأـرـضـ الـفـسـادـ؛ لـقـدـ ظـنـ أـنـهـ بـيـقـيـ أـبـدـ الـدـهـرـ وـكـذـلـكـ ظـنـ عـبـيـدـهـ، فـزـالـ نـمـرـودـ وـزـالـ عـبـيـدـ.

يا أيها المحزون المكروب:

اقـرـأـ التـارـيـخـ وـخـذـ مـنـهـ الـعـبـرـ. أـمـاـ إـنـهـ مـاـ كـانـ ظـفـرـ إـلـاـ مـنـ بـعـدـ هـزـيـمـةـ وـلـاـ كـانـ اـنـتـصـارـ بـلـاـ آـلـامـ، وـكـمـ مـنـ جـيـشـ أـلـثـخـنـتـهـ الـجـراـجـ وـتـخـطـيـ الـهـزـائـمـ وـصـوـلـاـ إـلـىـ النـصـرـ الـكـبـيرـ!ـ النـبـيـ -ـصـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ -ـ وـمـنـ مـعـهـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ أـصـابـهـمـ فـيـ أـحـدـ مـاـ أـصـابـهـمـ، فـمـاـ لـبـثـواـ غـيـرـ قـلـيلـ حـتـىـ انـقـلـبـتـ هـزـيـمـتـهـ نـصـرـاـ يـوـمـ الـأـحـزـابـ، ثـمـ تـكـلـلـ جـهـاـدـهـمـ بـالـفـتـحـ الـأـكـبـرـ وـدـخـلـوـاـ مـكـةـ ظـاهـرـيـنـ. وـحـينـ تـوـجـهـ الـمـسـلـمـوـنـ تـلـقـاءـ فـارـسـ بـعـدـ ذـلـكـ هـُزـمـوـاـ فـيـ "ـالـجـسـرـ"ـ هـزـيـمـةـ مـوجـعـةـ ثـمـ اـنـتـصـرـوـاـ فـيـ الـقـادـسـيـةـ نـصـرـاـ بـاهـرـاـ، وـلـوـ أـرـدـتـ أـنـ أـسـتـقـصـيـ كـلـ هـزـيـمـةـ أـعـقـبـهـاـ نـصـرـ لـاـ حـاجـتـ إـلـىـ مـجـلـدـاتـ، فـخـذـوـاـ الـعـبـرـ وـدـعـوـاـ التـفـاصـيـلـ:ـ مـاـ أـكـثـرـ مـاـ ؤـلـدـ الـنـصـرـ مـنـ رـحـمـ الـهـزـيـمـةـ،ـ وـمـاـ أـكـثـرـ مـاـ خـسـرـ الـمـتـحـارـبـوـنـ مـعـارـكـ ثـمـ رـبـحـوـاـ الـحـربـ.

يا أيها المحزونون المكروب:

أَلست تؤمن بالله وبوعد بالله؟ لقد وعد الله عباده المؤمنين بالنصر ولكنه لم يعدهم بالعافية من البلاء، لا بل أندرهم به وهياًهم لتحمله، فقال وهو أصدق القائلين: {أَمْ حسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ، مَسْتَهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا، حَتَّىٰ يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ: مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ؟} . لقد بلغ من شدة البأس والضراء أن الله - تبارك وتعالى - يشبهها بالزلزال، وببلغ من شدة البأس والضراء أن المؤمنين اقتربوا من اليأس! المؤمنون فقط؟ لا، بل والرسول أيضاً، فتخيلوا كم يبلغ إيمان الرسول، وتخيلوا حجم البلاء الذي يمكن أن يصل الرسول إلى اليأس أو قريباً من اليأس! ولكن ماذا بعد ذلك؟ الرسول والمؤمنون يسألون يائسين أو شبه يائسين: متى نصر الله؟ ما الجواب؟ اسمعوا الجواب يا أيها المحزونون: {أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}. قريب، ورب العزة والجلال إنه قريب.

اللَّهُمَّ إِنَّ النَّاسَ يَكَادُونَ يَسْقُطُونَ فِي هَاوِيَةِ الْيَأسِ، فَارْفَعْهُمُ اللَّهُمَّ بِرَافِعَةِ الْإِيمَانِ وَالْأَمْلِ. اللَّهُمَّ اقْذُفْ فِي قُلُوبِهِمُ الْطَّمَآنِيَّةَ وَبِرْدَ قُلُوبِهِمُ بِالْيَقِينِ. اللَّهُمَّ إِنَّكَ وَصَفْتَ مَحْنَةَ أَبْيَائِكَ فَقُلْتَ عَنْهُمْ: {حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيَّأْسَ الرَّسُولُ وَظَلَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءُهُمْ نَصْرُنَا}؛ وَهُؤُلَاءِ عَبَادُكَ فِي أَرْضِ الشَّامِ قَدْ اسْتَيَّأْسُوا إِلَّا مِنْ رَحْمَتِكَ، وَإِنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ كُذِبُوا، كَذَبُوهُمُ الْعَالَمُ مِنْ حَوْلِهِمْ، وَكَذَبَ ظَلَّهُمْ فِي الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ ظَنٌّ وَأَمْلٌ إِلَّا بِكَ يَا أَيُّهَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، فَفَرَّجَ اللَّهُمَّ كَرَبَّهُمْ، وَاكْشَفَ اللَّهُمَّ هَمَّهُمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ النَّصْرَ الْقَرِيبَ، اللَّهُمَّ أَنْزَلْ عَلَيْهِمُ نَصْرَكَ الْقَرِيبَ، اللَّهُمَّ أَنْزَلْ عَلَيْهِمُ نَصْرَكَ الْقَرِيبَ يَا سَمِيعَ الدُّعَاءِ.

المصدر: الزلزال السوري

المصادر: